حنان علاء

ضوء متوهج ولكنه خفي

شعرت بهذا الضوء شديد التوهج بداخلها يؤرقها كما لو تجلس على موقد من نار ولكنها لا تراه.. عفوا.. لمّا أقدمها لكم، إنها زينة.. تلك البنت الأنثوية ذات الملامح المصرية والطابع العربي الأصيل.

تشعر دائما بالتميز والاختلاف والوحدة كما لو أنها وحيدة في هذا العالم المكتظ بالبشرية.. لم تعلم سببًا وجيهًا في نظرتها الدائمة إلى السماء.. لم تعلم سبب هذا الانتماء، كأن روحها تريد الصعود لعالمها السماوي، ولكنها تمسك بها على أرض هذا الكوكب.

تنظر إلى الناس كما لو كانوا غرباء بالرغم من الشكل الإنساني المشترك، ولكنها تشعر بعدم الانتماء لهذا القطيع. يشتركون جميعًا في نفس العادات والمعتقدات والأفكار جميعًا سواء، والاختلاف الوحيد هو تعدد الألسنة التي تنطق بنفس كلام القطيع، كفى.. أين أنا؟ إلى أي مكان أنتمي؟ إلى هذا المكان الذي ولدت وتعايشت فيه أم أين؟ أم يوجد عالم آخر خفي لا أراه؟

أشعر بالانتماء والاطمئنان كلما جلست بمفردي والعالم المكون من السماء والأرض هو منزلي.

ولكن لحظة.. ما الذي يخرجني من هذا التناغم الجميل والسلام الداخلي الذي طالما اشتقت إليه؟ كلما بعد عني نهر أريد أن أشرب منه حتى أروي ظمئي، ولكنه يغيب كلما ظهرت هذه المشكلة اللعينة في حياتي البسيطة.. المال.. تلك الكلمة التي طالما أرهقت نفسي. إلهي.. لمَ كل هذه المشاكل؟ المال.. المال.. المال. يا لها من

كلمة أرهقت الملايين! لماذا؟! تذكرت ذلك الاحتياج الذي كاد أن يعصر قلبي من الألم عندما أردت شراء ما يسد احتياجاتي ولم يكن بوسعي اقتناوه. وفي كل مرة أزداد سخطًا على الحال وأحزن من الوضع الذي وجدت نفسي عليه، ومرت السنين ولم يحدث أي تغيير، لقد بذلت المزيد والمزيد من الجهد لكي أحصل منه على ما يكفيني ويحقق أحلامي ولكن أين السبيل؟ وفي أحد الأيام استيقظت على صوت عذب مليء بالسلام والراحة التي كلما شعرت بها أردت المزيد.. نهر أريد أن أشرب منه حتى أروي ظمئي.. آيات من القرآن، يا له من محرك للقلب والعقل والجسد استمعت إليه بإنصات حتى اتضح لي ما يعنيه هذا الصوت الهادئ الحنون،

شعرت بأحد يكلمني.. زينة.. استيقظي أريد أن أسلمك رسالة من ربك، نور على طريقك اتبعيه وستجدين الطريق، وسمعت (وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فاندهشت لهذه الآية العجيبة التي توحي بتوافر الرزق ولكن أين هو؟ لم أره، أيقصد أنه في السماء وأنه حقا موجود.. ولكن كيف يأتي؟ أيوجد طريق للوصول إليه؟ أيقصد أن أدعو الله في صلواتي أم ماذا؟ فقد فعلت ذلك كثيرًا وكثيرًا ولكن ما من فائدة، وكأن كلما دعوت ازداد الأمر تعثرا، وكلما سعيت ازداد تعقدًا، أيوجد سر؟ أيوجد حقا سر لم أعلمه؟ وامتلأت بالحماسة والاندهاش والإثارة وأسرعت إلى درج مكتبي الهالك وانتزعت منه ورقًا وقلمًا وأخذت أرسم بعض أوراق المال، الكثير والكثير،

وأخذت ألونها لدرجة تصديقي بأنه مال حقيقي ألمسه بيدي واستطيع أن أتصرف فيه بكامل إرادتي، وأخرجت من جيبي ورقة من النقود فاندهشت، ما هذا؟ لم أصدق؟ ما هذا؟ إنه ورق أيضا!

المال ورق والرسم الذي رسمته على ورق! إنهما واحد، ورق.. ورق..

ورق.. إلهي ما الذي يحدث لي؟ هل كل هذه التعاسة بسبب ورق؟!

وأنا البشري الذي خلقته وصورته في أحسن تقويم عبد ورق!!

ورفعت ورقة النقود أمام عيني وتحدثت لها كما أتحدث أمام إحدى صديقاتي المقربات.. أنتِ ورقة أستطيع تقطيعها كيفما شئت ووقتما شئت، أستطيع أن أرسم منك الآلاف ولكنك حقا لا تستطيعين لأنك كنت دائما وأبدًا مجرد ورقة.. وفجأة تجلت أمام عيني آية من آيات ربي (وسخرنا لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فابتسمت فلم أدرك للحظة أنني مميزة لهذه الدرجة، وأن الصورة في عيني كانت مقلوبة، أكل هذا الكون مسخر لي؟ قضيت سنوات من عمري في حفظ هذه الآية ولكن لم أدرك معناها حتى الآن، يا لها من معجزة!

ما هذا الذي بداخلي؟ ما الكنز الذي منحه الله لي ولهذا سخر الكون كله من أجلي؟ أهو العقل أم القلب أم الروح أم الجسد أم الإنسان؟ أهو الذي تجمعت فيه المعجزة الإلهية مزيجًا شديد التآلف، حقا لم أدرك هذا الأمر من قبل! فنهضت وأخذت أهرول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، لم أستطع أن أتحكم في نفسي من شدة

الطاقة والحيوية التي ملأت جسدي، الآن أستطيع أن أنير منزلي بالكامل بدون كهرباء.. وأخذت أهدئ نفسي، لقد أمسكتِ طرف الخيط الذي طالما تمنيت الوصول إليه، ولم أكن على علم أبدًا بوجوده بداخلي. وسألت نفسي: زينة؟ ماذا تريدين أن تملكي أكثر مما ملكتِه الآن؟ أنت ملكتِ الكون كله وملكت نفسك وعقلك وقلبك، ملكتِ الحياة، ملكت الإرادة وملكت الفكرة، وسألت نفسي ما سبب كل هذه العثرة؟ ووجدت الإجابة تتجلى بخاطري كما تنزل قطرات الندى على وجهي في ليلة مبكرة، إحساس ساحر، الإجابة لم تكن غير نور متوهج ولكنه خفي!!